الفصل السابع عشر

حطين

الاتحاد قوة والتفرق ضعف

لقد طالعتنا الأحداث التاريخية بمدى تأثرها بحالتي الوحدة والفرقة، وأخبرتنا بما جنيناه من عزة نتيجة لتوحدنا وبما عانيناه بسبب فرقتنا. ولعل كل منا قد عمل على نبذ أي خلاف مع إخوته في الدين وحاول أن يقرب المسافات بينه وبينهم، حتى يأتي اليوم الذي تكون فيه الأمة وحدة واحدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

القوة ورباط الخيل

وإذا كان هذا الفصل يخص بالذكر ما جرى من استعدادات قبل معركة حطين، فذلك لأن تلك المعركة وما سبقها وما تلاها تعد جميعها مبعثا على العزة والأمل في إعادة وضعنا إلى ما كان عليه بعد الانتصار في تلك المعركة. وكذلك، فإن ذكر ما جرى بموقعة "حطين" يؤكد أنه سيأتي اليوم الذي نحقق فيه انتصارا مثل الذي حققناه من قبل، ونتخلص فيه من كل الغاصبين لأرض الإسلام. وفى هذا السياق، أذكر حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: "لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتل المسلمون اليهود، فيختبئ اليهود وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر"يا مسلم، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله" إلا شجر الغرقد وهو الذي يعنى اليهود الآن بزراعته بآلاف الأعداد داخل ما يسمونه "دولتهم". إذن، فإن نوعية الانتصار الذي حدث في "حطين" لا يقتصر حدوثه على ذلك اليوم ولا على

ذلك الموقع، إنما هو النوع الذي أنبأنا نبينا الكريم صلوات الله عليه وسلامه بضرورة حدوثه في لحظة مستقبلية قبل قيام الساعة. ولكن الأسئلة المهمة تطرح نفسها "ماذا سيكون موقفك من المعركة المنتظرة؟ هل أنت على استعداد للمشاركة فيها بالأسلوب المتاح لك؟ أم ستقعد مع القاعدين؟". وعن الإعداد السليم لأي معركة حربية يخوضها المسلم ضد أعداء الدين، يقول الله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وعند التدقيق في الألفاظ التي حوتها الآية الكريمة نجد أن الإعداد للمعركة لا يكون بتوفير ما تيسر من القوى المادية فقط، وإنما هو إعداد إيماني في المقام الأول، يصحبه استحضار لأسباب الانتصار. وأحد هذه الأسباب هو مواجهة العدو بجسارة بحيث تقع فيه الرهبة من المؤمنين، وهذا هو "الإرهاب" الذي رخصه الله تعالى لعباده المواجهين لأعداء الدين. أما ما يفعله المجرمون والمأجورون والمرتزقة فهذا ليس له أية علاقة بالإسلام ولا بهذه الآية. إنما كانت الآية القرآنية نبراسا لصلاح الدين بعد أن استعد واستتب له الأمر، فأراد أن يواجه الصليبيين في معركة واحدة فاصلة لا تقوم لهم قائمة بعدها. وبالفعل، بعد انتصار "حطين" لم يقو الصليبيون على مواجهة المسلمين طالما كان المنهج الإيماني الذي انتهجه صلاح الدين يعمل به.

العبد الصالح ... والعدو الطالح

كان المرض الشديد الذي تعرض له صلاح الدين سبباً في أن تتم المعاهدة بينه وبين سيف الدين غازي. وكان هذا الحدث دليلاً على سماحة صلاح الدين ونبل أخلاقه التي جعلته يتصالح مع ذلك الأمير المسلم الذي ظل معاديا لفكرة التوحد لفترة طويلة. ولما شاء المولى عز وجل أن يشفى صلاح الدين من المرض الذي كاد

أن يودى بحياته، كان ذلك له وقع سلبي على سيف الدين غازي الذي كان يطمع في خلافة صلاح الدين، ولكن لم يكن له أن يتراجع عن شروط المعاهدة التي كان قد أبرمها مع سلطان مصر والشام.

وقد اتصف صلاح الدين بالوفاء بالعهود وعدم نقضها. ولكن الوضع اختلف عندما أقبل الأمير الصليبي أرناط على إحدى غدراته بتعرضه لقوافل الحجيج في نفس السنة التي وقعت فيها موقعة "حطين"، إذ كانت لا علاقة له بالفروسية ولا الإنسانية، ولم يكن يحترم أي عهد أو ميثاق. وبالفعل سطا أرناط على قافلة الحجيج العزل، وما كان ذلك بجديد عليه ولا على كل سفاح في كل زمان ومكان. وبالنسبة لصلاح الدين، كان ذلك الحدث الإجرامي نقضا للعهد المبرم بينه وبين الصليبيين، فتحرك صلاح الدين فورا على رأس اثني عشر ألف جندي إلى قلعة الكرك وبدأ يدق أسوارها بالمنجنيق ليل نهار، ولكن مناعتها حالت دون سقوطها في يده.

الحرب خدعة

وفى الواقع، لم يكن صلاح الدين قد عقد العزم على الاستيلاء على تلك القلعة، وإنما أراد بمهاجمتها أن يصرف أعين الصليبيين عن جموع المقاتلين الذين بدأوا يتجمعون في دمشق، حاضرين من الحجاز واليمن ومصر وتونس، حيث كان الإعلان العام للجهاد في سبيل الله قد أشيع في شرق البلاد وغربها. وكان الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي منتظراً لهذه الجموع في دمشق، فأخذ ينظمها ويحرص على تدريبها انتظاراً لعودة صلاح الدين إلى دمشق. ونظراً للخبرات العسكرية التي كان صلاح الدين قد اكتسبها من عمه أسد الدين شيركوه ومن قائده نور الدين محمود في الشام ومصر، فقد حرص هذا القائد المحنك على إخفاء وجهته الحقيقية للمعركة الفاصلة حتى لا يأخذ الصليبيون احتياطاتهم. ومن أجل هذا السبب كان صلاح

الدين قد توجه إلى الكرك بينما كان الأسطول المصري يهاجم عسقلان ، وذلك ليوحي لأعدائه بأنه يرغب في فتح عسقلان ودخول بيت المقدس عن طريق البحر. وإمعانا في التمويه، ينسحب الأسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ من أمام عسقلان ويتجه إلى الشمال لضرب عكا. وبالفعل، تحركت فرقة تتألف من خمسمائة فارس بقيادة مظفر الدين كوكبورى وكانت مهمتهم شبه انتحارية إذ كلفوا بضرب أمنع الحصون الصليبية على الإطلاق وهى عكا التي كان بها أفضل جند الأعداء من الداوية والإسبتارية. وكان صلاح الدين يهدف بذلك الهجوم على عكا زعزعة نفوس جندها بشكل مؤثر. وخاض مظفر الدين كوكبورى موقعة من أشرس المواقع التي حدثت قبل "حطين"، فقد فيها ثلاثمائة مقاتل من خيرة مقاتلي الشام مقابل موت ألف وخمسمائة صليبي من فرسان الداوية والإسبتارية. وبذلك، اعتقد الصليبيون اعتقادا راسخا أن صلاح الدين يهدف إلى الاستيلاء على عكا، فأخذت قواتهم تتجمع في عكا، فجاء جايل من بيت المقدس، وبوهيموند من أنطاكيا، وريموند وأرناط بعد أن فك صلاح الدين الحصار الذي كان قد فرضه على الكرك. وتجمعت القوات الصليبية بالفعل في مكان قريب من عكا اسمه "صافورية"، وهو يبعد ستة عشر ميلا عن هضبة حطين.

الاستعداد المتين لمعركة حطين

وعاد صلاح الدين إلى دمشق وأخذ يتفقد الجموع القادمة في سرية كاملة ، وبإعداد توافق نفسي وتنسيق بين الكتائب القادمة من كل البقاع الإسلامية، حرصا على تحقيق الانتصار في المعركة المنتظرة. وكان قد جاء من مصر خمسة عشر ألف جندي أرسلهم العادل، أخو صلاح الدين، ونفس العدد أيضا جاء من دمشق، ليتجمع لأول مرة مع صلاح الدين خمسين ألف مقاتل من خيرة فرسان الأمة الإسلامية.

ولكن، الجدير بالذكر أن نوعية الجند الذين تجمعوا لم تكن على شاكلة الجند الذين واجهوا الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية. لقد كان هناك اختلاف كبير بين الفئتين حيث إن الجند الذين تم إعدادهم لخوض معركة "حطين" كانوا قد خضعوا منذ صغرهم لتربية إسلامية صحيحة، ووصلوا لدرجة كبيرة من اليقين بعد سنين طويلة إذ كان معظمهم من خيرة شباب مصر ودمشق وحلب وحمص ومعرة النعمان وديار بكر والموصل وبغداد. وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح في تكوين توليفة من المقاتلين يصعب قهرهم.

وتواجدت القوات المسلمة في دمشق، بينما كانت جموع الأعداء مجتمعة في صافورية. وشرع صلاح الدين في ضرب عمق بيروت بضرب خاطف بغية إرباك الصليبيين وتمويههم عن مقصده الحقيقي من موقع المعركة التي يخطط لمواجهتهم فيها.

الخيرة للمؤمنين ... والحيرة للصليبيين

وبدأت اللحظة الحاسمة بوصول القوات الإسلامية إلى موقع المعركة في ١٦ ربيع الثاني من عام ٥٨٣ هجرية. وكان الجند قد وصلوا إلى منطقة الإقحوانة بعد عبورهم نهر الأردن إلى الجنوب من بحيرة طبرية. ووصل بالفعل صلاح الدين الأيوبي إلى الإقحوانة دون أن يتأكد أحد من أعدائه إذا كان ينوى التوجه إلى صافورية للقتال أم للبقاء في ذلك الموقع، لاسيما أنهم كانوا في أشد القلق من تنامي قوته العسكرية. وكان الأمراء الصليبيون يتساءلون إذا كان الأنسب لهم أن ينتظروا هجوم صلاح الدين أم أن يبادروا هم بالهجوم قبل أن يكون قد جمع قواته. ومن هنا جاء الخلاف بينهم، فبينما كان جايل وريموند يفضلان عدم التحرك من صافورية، خالفهما أرناط كالعادة نظراً لغطرسته وأصر على شن هجوم مباغت على صلاح الدين. وأخذ الأميران الصليبيان الآخران يحذرانه من عدد وعدة صلاح الدين إلا

أنه كان يرد عليهما بغرور ووصف الجنود المسلمين بالحطب إذ قال: "إن الحطب الكثير تشتعل فيه النيران أكثر!". وإن دلت سخرية أرناط على شيء إنما تدل على غروره الذي سيدفع ثمنه حياته وهزيمة قواته شر هزيمة حتى إن المؤرخين حينما يشيرون إلى موقعة " حطين" فإنهم لا يصفونها بالمعركة الحربية وإنما "الزلزال". وقد كانت هزيمة الصليبيين في حطين زلزالا بالفعل، زلزل كيان أوروبا كلها.

صلاح ... الدهاء والحيلة

وفى صباح اليوم التالي حرك صلاح الدين قواته من "الإقحوانة" إلى منطقة اسمها "تل كفر سبت". وكان على صلاح الدين أن يتخذ موقفا لاستفزاز القادة الصليبيين، فوصل إلى قلعة "طبرية" وفتحها ولم يمكث فيها طويلا، بل تركها لأن زوجة ريموند كانت موجودة بالقلعة. وكانت خطة صلاح الدين هي استثارة ريموند نفسيا حتى يتبع أرناط من "صافورية" إلى المنطقة التي يستهدفها سلطان المسلمين والمسماة "تل حطين" كموقع للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين. وطلب أرناط بشدة من ريموند وجايل اللحاق به إلى "حطين"، وبالفعل تحركت قواتهم إلى هناك. ولكن صلاح الدين كان قد أعد مفاجأة لأعدائه عندما قام بردم آبار المياه كلها على طول الستة عشر ميل من "صافورية" إلى "حطين"! وبذلك يكون السلطان المسلم قد حرم أعداءه من مصادر المياه، واستفزهم على مواجهته عسكريا في طقس حار من شهر يولية ، وأرهقهم بالتنقل من موقع إلى آخر وهم محملين بقدر كبير من الأثقال نظراً للباس الحربي والمعدات العسكرية التي تعود الجندي الصليبي على حملها. وبالطبع، أدى كل ذلك إلى إنهاك الجيش الصليبي عند وصوله إلى "تل حطين".

وهكذا، وجد مائة وعشرون ألفا من الجنود الصليبيين أنفسهم فوق هذا التل وهم على وشك الحرمان من المياه بعد نفاذ صهاريج الماء التي أحضروها معهم

كمصدر احتياطي. وكان ذلك هو اليوم الذي أذاقهم فيه صلاح الدين مرارة العذاب البدني والنفسي التي طالما جرعوا المسلمين من كؤوسها. وعلى الجانب الآخر، كان المسلمون في شوق إلى اللحظة المنتظرة منذ واحد وتسعين عاما لتحرير المسجد الأقصى الذي كان هؤلاء الصليبيون قد حولوه إلى حظيرة للخنازير! وإمعانا في إحكام خطته العسكرية، أرسل صلاح الدين ثمانية آلاف مقاتل بقيادة فروخ شاة خلف مؤخرة الجيش الصليبي لقطع عليهم خط الرجعة ومنعهم من الهروب إلى "صافورية" أو"بيت المقدس" أو"أنطاكيا" أو"طرابلس". وبالفعل، حدث صدام بين المؤخرة الصليبية والمقاتلين المسلمين فعرف الغربيون أن لا ملجأ لهم إلا سهل "حطين". وبالإضافة إلى ذلك، أمر صلاح الدين بإشعال النيران في الغابات والمناطق العشبية المحيطة بالصليبيين. وما كانت نتيجة كل ذلك الإحكام والدهاء العسكريين إلا أن انسحب قائد صليبي ووصل إلى خيمة صلاح الدين قائلا له: "فيم انتظارك؟ أقبل علينا لتنهى هذه المهزلة، نحن في انتظار الموت!". واستسلم ساعتها هذا القائد لجيش المسلمين.

وفى تلك اللحظة، انطلقت فرقة من المصريين لتتسلل خلف خطوط العدو بغرض إحداث فتحات كبيرة في الصهاريج لإخلائها من المياه. وإزاء هذا المأزق المفاجئ، توجهت كتيبة صليبية من فرسان "الداوية" و"الإسبتارية" إلى بحيرة "طبرية" من أجل الحصول على الماء، وكان في انتظارهم تقي الدين عمر وقواته الذين أبادوهم عن بكرة أبيهم!

ازدياد الإيمان ليلة الامتحان

ويتضح من كل ما سبق أن أسباب نجاح المسلمين كانت قد تهيأت قبل بدء المعركة. وبالطبع، كان ذلك نتيجة توجه صلاح الدين ومن أعدهم من الجند المسلمين إلى الله عز وجل، ثم إلى حسن الإعداد الخططي لصلاح الدين عبر

السنوات الطوال، إلى جانب توفر المهرة من القادة من أمثال تقي الدين عمر ، وفروخ شاه، والأفضل بن صلاح الدين، ومظفر الدين كوكبورى، وآخرين من أبناء الجيل الذي كان قد عمل صلاح الدين على تنشئته النشأة الصالحة.

أما عن الاستعداد الإيماني، فحدث ولا حرج. فمن ضمن ما كان ليلة المعركة أخذ أحد الجند يبتهل إلى الله جل شأنه قائلا: " الحمد لله الذي اختارني لأشارك في المعركة الفاصلة، اللهم أسألك الشهادة فيها، وأن تبر بقسمي بفتح المسلمين لبيت المقدس بعدها. ولنتأمل كذلك الحوار التالي بين جنديين أحدهما يتحسس ملابس أخيه:

"(الجندي الأول) : ما هذا الذي ترتديه؟

(الجندي الثاني) : إنه الدرع الذي يقيني سيوف ورماح الصليبيين.

(الجندي الأول) : والله ما هذا لباس من يريد أن يقاتل في سبيل الله".

وما كان من الجندي الثاني إلا أن خلع الدرع واحتضن المقاتلان على أن يلتقيا في جنات الفردوس مع رسول الله ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم. وهذا طبعا بالإضافة إلى الأعداد الغفيرة التي قامت الليل بسورتي الأنفال والتوبة مرددة الآيات التالية:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال:١٧].

وكانت المشاهد تؤكد أن معركة "حطين" سوف تصبح مثل المعارك المباركة التي خاضها رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وسوف يتحقق فيها

النصر كما تحقق في "بدر" أو"الخندق" أو"فتح مكة". إذن، فإن إحساس المقاتلين أنفسهم كان مختلفا عن إحساسهم عشية المعارك السابقة لارتباطهم بالله تبارك وتعالى.

أما الشخصية الأهم على الإطلاق في مثل هذه المواقف هي شخصية القائد صلاح الدين الأيوبي الذي لم ينم لثلاثة أيام ولياليها قبل المعركة إرضاء لوجه الله العلى القدير، فهو يبتهل إلى الله تعالى قائلا: " اللهم لقد انقطعت أسبابي الأرضية لنصرة دينك، ولم يبق لي غير الإخلال إليك، والتوكل عليك، والاحتساب إليك، فحسبي الله ونعم الوكيل". وبعد صلاة الفجر، أخذ صلاح الدين يعد قواته ويرتبهم ميمنة وميسرة.

وبناء على ما سبق، فالمطلوب من كل منا أن يأخذ بالأسباب في أي أمر من أمور الحياة ، ثم يتوكل على الله الرحمن الرحيم. والأخذ بالأسباب لا بد وأن تصاحبه مظاهر الجد والتنفيذ العملي. ومتى أقبلنا على بذل الجهد والتضرع إلى خالقنا البارئ ، المصور، البديع، الكريم، أصبح النجاح والفلاح حليف كل فرد في أمتنا الغراء.

***

obeikandl.com